مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 487 - 503 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نقْدُ الهويات القاتلة في الرّواية الجزائريّة المعاصرة. رواية " ذاكرة الماء " ل " واسيني الأعرج " نموذجا

Criticism of the killing identities " in the contemporary Algerian novel.

"Memory of Water", a novel by "Wasiny Alaaradj" as a model

د. بن عودة دولات سروري*

Dr. Benaouda doulate – serouri

جامعة لونيسي علي – البليدة 2 . الجزائر.

University Lounissi Ali - Blida 2. Algeria.

serouri48@hotmail.fr

تاريخ الإرسال:/2020/04	تاريخ القبول: 2020 /06/21	تاريخ النشر : 2020/11/07

مُلخّص البحث

شَهدتْ تِسْعِينَاتُ القَرْنِ الماضِي تحوّلا سياسيًّا في الجزائرِ، تَمَخّضَ عنهُ عُنفٌ دامٍ، فَرَضَ مِيلادَ مُتونٍ سردِيّةٍ أجْهدَتْ نفْسهَا للإجابة عن بعضِ الأسئلة المرتبطةِ بالعُنف، ومن هذه النّصوص نذكر روايةَ " ذاكرة الماء" ل " واسيني الأعرج. "

لقدْ جَعَلَ " واسيني " من **نقْدِ الذات القاتلةِ وبيَانِ دوافعِ القَتْل لدَيْها** أحدَ الغاياتِ المرجُوّةِ من خطابِهِ السّرديّ، فَفِيمَ تتلخّص تلك الدّوافع– في نظره؟ وكيف نظر إليها الرّوائيّ؟ هذه هي الإشكاليّة الّتي سعينا إلى الإجابة عليها. وقد توصّلنا إلى أنّ دوافع القتل لدى المتطرّف لا تخرُجُ عن أمور ثلاثة – في نظر الكاتب – أوّلها: محاولة المتطرّف تعوِيضَ عجْزِهِ النّاجمِ عن افْتقاره للآلياتِ الّتي تمكّنه من إثبات ذاته في الواقع، ولجوئِهِ إلى السّلاح كوسيلةٍ بديلةٍ. ثانيهما: شُيوع ثقافةِ اللا تسامح ونبذ الآخر المخالف في الفكر أو المعتقد، أمّا ثالِثُهما – وهو الدّافعُ الأخطر– فهو اعتمادُ القتل بُغيةَ إسكاتِ المثقّف وإخْراسِهِ إلى الأبد.

الكلمات المفتاح : الرواية الجزائرية، المأساة الوطنيّة، جاهل، مثقّف، العنف.

Abstract :

The 1990s witnessed a political transformation in Algeria, which resulted in bloody violence. It imposed the birth of narrative texts that worked hard to answer some questions related to violence.

* بن عودة دولات سروري: serouri48@hotmail.fr

Among these texts we mention the novel "Memory of Water" by "Wasiny Alaaredj."
Wassini made criticism of the murderer and his murder motives one of the desired goals of his narrative discourse, so what are these motives in his view? How did the novelist view it? This is the problem that we sought to answer. We have concluded that the extremist's motives for killing do not deviate from three things - in the writer's view - the first of which is the extremist's attempt to make up for his inability resulting from his lack of mechanisms that would enable him to prove himself in reality, and his resort to weapons as an alternative means. The second: the spread of the culture of intolerance and the rejection of the other contrary to thought or belief, and the third of them - which is the most dangerous motive - is the adoption of killing in order to silence and silence the intellectual forever.
Keywords: Algerian novel, National tragedy, Ignorant, Intellectual, Violence.

– مقدمة:

كانتْ تِسْعِينَاتُ القَرْنِ الماضِي عُشرِيّةَ التّحوُّلِ نحْوَ كتابَةٍ روائِيّةٍ جدِيدةٍ واكَبتْ التّحوّلَ السّياسيّ في الجزائرِ ومَا تمَخّضَ عنهُ مِنْ عُنفٍ دامٍ، هذِهِ الظروفُ الّتي عَصَفتْ بالجزائرِ فَرَضَتْ مِيلادَ مُتونٍ سردِيّةٍ موسُومَةٍ بِسماتِ تلك المرحلةِ المعروفةِ بعُشرِيّةِ الإرهابِ، ما حَتّمَ عليْها مُعالجَةَ وضْعٍ مُتأزّمٍ وَفَتْرَةٍ حَرجَةٍ من تاريخ الجزائر المعَاصِرِ، وبالرّغمِ من قَساوةِ تلك الفترةِ إلاّ أنّها « **بَيَّنَتْ خُصُوبَةَ الْعَطَاءِ الرِّوَائِيِّ الّذِي يَدُلُّ عَلَى وَعْيٍ نَظَرِيٍّ فِي فَهْمِ التّشْكِيلِ الاجْتِمَاعِيِّ وَتَشْخِيصِهِ فَنِيًّا، فَكَانَتْ الرِّوَايَاتُ كُلُّهَا تَعْبِيرًا عَنْ رُؤْيَةِ العَالَمِ لِأَنْمَاطِ الْوَعْيِ الْمُتَجَلِيَّةِ خِلَالَ هَذِهِ الْمَرْحَلَة.** »[1]

ولأنّ الرّوايةَ التّسعينِيّةَ تَزامَنَ اِنْبِثاقُها معَ ظروفٍ عَصِيبةٍ كانتْ تَمُرُّ بها البلادُ، فإنّ المضمونَ المأساوِيَّ « **قَدْ وجدَ في هذهِ الظروفِ التّاريخِيّةِ المُتأزّمةِ مِنْ تارِيخِ الجزائِرِ ورِوايَتِها الّتي وَاكَبَتْ تِلكَ الأحداثِ المأساوِيّةِ مَناخًا مُناسِبًا يَحِلُّ فِيهِ، ويَبُثُّ فِي خِطابِها الرّوائِيِّ ملامِحَ مأساوِيّةً، يشتَغِلُ الإيديولوجِيُّ، والرّؤيَوِيُّ والمَضْمونِيُّ فِيها من أجْلِ تحدِيدِ صِياغَةٍ فَنِيّةٍ لِهَوِيّةِ الشّكْلِ الجديدِ المُنْتَظرِ.** »[2] ومن هذه النّصوص ما انحرفَ أصحابُها وراءَ سَيْلِ الخِطابِ الصّحفيّ وأغرقُوا في الأساليبِ الإخبارِيّة وتسجِيلِ الوقائع اليومِيّةِ، على حِسابِ ما يستوجِبهُ الفنّ

الرّوائيّ من توظيفِ خيَالٍ وتقنياتِ سَرْدٍ، فتعالتْ الأصواتُ النّقديّة المؤاخِذَةُ حينًا والرّافضةُ حِينًا آخرَ، داعيةً إلى ضرورةِ التّروّي في معالجة المأساةِ الّتي تتطلّبُ إلْمامًا بالحيثياتِ والولوُج في دهاليزِ الأزمةِ بُغْيَةَ استيعابِ أبْعادِها، هذا التّروّي قدْ يكونُ كفِيلاً بعدم الوقوعِ في فخّ (الأدب الاستعجاليّ) الّذي اسْتَهْجَنَتْهُ العدِيدُ من الأصْواتِ، ومن بيْنِها الرّوائي " مرزاق بقطاش " الّذي قال عنْ بعْضِ الأعمالِ الرّوائيّة الصّادرة آنذاك: « .. **وإذا بي أقرأُ كتاباتٍ مُسْتَعْجَلَةً يظنُّ أصحابُهَا أنّهُمْ يُعَالِجُون صُلْبَ الموضوعِ، والمَعرُوفُ في تاريخ الرّوايةِ العالميّةِ أنَّ الإنجازاتِ الرّوائيّةِ لا تتحقّق إلاَّ بَعْدَ هُدوءِ البَراكينِ الاجتماعيَّةِ، لَسْتُ في حاجَةٍ إلى أنْ أضربَ المثلَ في هذا الشّأنِ " تولستوي " كَتَبَ عَنْ زَحْفِ " نابليون " على رُوسيَا بعدِ ستّينَ سَنَةً مِنَ الحَرْبِ وَ " نجيب محفوظ " كتب عن ثورة 1919 بعد أكثر من ثلاثين عامًا على نهايتها.** » [3]

وإذا كانت بعضُ الأصوات النّقديّة لم تَجِدْ حَرَجًا في إخراج النّصوص السّرديّة الّتي كُتِبتْ خلال تلك الفترة من فَلَكِ الفنّ الرّوائيّ، فإنّ البعضَ الآخرَ آثرُوا الاعتدالَ في آرائهم، ومن هؤلاءِ نذكر النّاقدة الكويتيّة " سعاد العنزي " الّتي رأتْ أنّهُ ثَمّةَ مُصطلحٌ: « **يصفُ حالةَ الرّوايةِ والأدبِ الجزائريِّ، وهُوَ مُصْطَلَحُ الأدَبِ الإسْتِعْجَاليِّ الّذِي يُوَاكِبُ الحَدَثَ مِنْ دُونِ اِخْتِمَارٍ لِلْتَّجْرِبَةِ وَتَشْكِيلٍ جَيِّدٍ. مِنْ هُنا فإنّنَا لا نَدِينُ الرّوائيّينَ الجَزَائِرِيِّينَ بِقَدْرِ مَا نُقَيِّمُ وَضْعِيَّةً مُعَيَّنَةً، وبِالْتِفَاتَةٍ ثَاقِبَةٍ لأَدَبِ مَا بَعْدَ العُشْرِيَّةِ الحَمْرَاءِ سَتَظْهرُ نُصُوصٌ رِوَائِيَّةٌ جَيِّدَةٌ اقترَبَتْ مِنْ فَنِيَّةِ العَمَلِ الرّوَائِيِّ، وَخَاضَتْ أُفُقَ التّجْرِيبِ الحَدَاثِيِّ.** » [4]

وعليهِ فإنّهُ مِنْ رواياتِ المأساةِ الوطنيّةِ ما صُنِّفَتْ في خانةِ أدب الاستعجال، ومنها ما وُفِّقَتْ فِي تصويرِ الرّاهن الجزائري المأساويِّ وفق معادلة فنيّة جماليّة في مُدَوَّنَاتٍ عكَسَتْ مذهَبَ التّجريب في الرّواية الجزائريّة، مُتجاوزةً الأنماط التّقليدية في الكتابة بعدما وَفّقَتْ بين الحُمولةِ الفكريّة للنّص وشرطِ الكتابة الفنيّة، جاعِلَةً « **النَّصَ يُجْهِدُ نَفْسَهُ للإجابَةِ عنْ بَعْضِ مُسْتحِيلاتِهِ مِنْ دونِ أنْ تَخْسرَ الكِتابَةُ شَرْطَهَا.** »[5] وبَحثَتْ في « **خَلْخَلَةِ المِيثَاقِ السَّرْدِي السَّائِدِ وَمَا يَنْبَنِي علَيْهِ مِنْ أنْسَاقٍ مَأْلُوفَةٍ.**»[6]

كما حاولَ بعضُ الرّوائيّين تقديمَ قراءاتٍ منطقيّةٍ لِمَا وصل إليه الجزائريّ من تَلذّذ بِقتلِ أخِيه، فكانتْ بعضُ المُحاولاتِ جادّةً ترتكِزُ إلى منطقٍ، مثلما نجدُه في رواية " ذاكرة الماء " لـ "

واسيني الأعرج، الّذي نبّهَ إلى ضرورة النّبشِ في التّاريخ و مُساءلَة الماضي لِفهم المأساة. يقول: «**جُزءٌ كَبِيرٌ من هذا التّاريخ الّذي نَقْرأُهُ، كُتِبَ بِمقاسَاتٍ مُحدّدة، نحتاجُ إلى بَعْضِ الموضُوعِيّة لِنفْهمَ المَأساةَ الّتِي تأكُلُ اليومَ الأخْضرَ واليَّابِسَ.** »[7]

– **في هذه الدّراسة سنحاول الإجابة عن الإشكاليّة الآتيّة:** ما هي أهمّ الدّوافع – في نظر " واسيني " – الّتي حملت المتطرّف على اعتماد القتلِ؟ وهل القتلُ عنده غايةٌ أمْ وسيلةٌ؟ وهل يُعدُّ إفناءُ الآخرِ المخالفِ في الفكر أو المعتقد إفرازًا حتميًّا لشُيوع ثقافة اللا تسامح السّائدة في البيئة؟ ولماذا كان المثقّف الأكثر تعرُّضًا للتّصفيّة؟

– **فعل القتل في رواية (ذاكرة الماء) لـ " واسيني الأعرج " : دوافعه، ونقْدُه :**

لقدْ حاولَ " واسيني " في (ذاكرة الماء) البحثَ في أسبابِ تفشّي لغة العُنف الّتي كان القَتلُ والتّنكيل بالجثثِ أحدَ مظاهرِها، جاعلاً من **نقْدِ الذَاتِ القاتلةِ وبيَانِ دوافعِ القَتْل لدَيْها** أحدَ أسْمى أهدافِه المُتوخّاةِ من نصّه، ومن بين تلك الدّوافع الّتي رصَدْناها ما كان مُتعلّقا بإثباتِ الّذات، ومنها ما هو مُرتبطٌ في الأساس بثقافةِ اللا تسامح السّائدة، ونبذ الآخر المخالف، بينما يتعلّقُ الدّافعُ الأخطر في تبني ثقافة القتل بإسكاتِ المثقّف وإخْراسِهِ إلى الأبد عن طريق تصفيّته جسديًّا، حينها يكون – في نظر الرّوائيّ – فكرُ السّياسيّ مُعادِلاً لِفكر المتطرّف، وانعكاسًا لِصورة القاتل.

أوّلا: فعل القتل باعتباره إثباتَ ذاتٍ :

1– الانتماء للجماعة المسلّحة تحقيقا للذات :

يسعى كلّ إنسانٍ إلى تحقيقِ كينونَتِه، وإذا كان الفردُ في المجتمعات المتحضّرة يُحقّقُ ذاتَهُ عبْرَ تجسِيدِ الأحلام الشّاهقةِ على أرْضِ الواقع، فإنّ الفردَ في المجتمعات النّامِيةِ يقْضِي شطرًا كبيرًا من حياتَه لاهِثًا وراء أمنياتٍ بسيطةٍ كالعمل والسّكن وغيرهما، هذا من شأنهِ أنْ يُأجّجَ مشاعر العدمِيّة لديهِ، ويَدْفعَ به إلى الإحساسِ بالاغتراب واللا إنتماءِ.

حاول " حليم بركات " في مُؤَلَّفِهِ (الاغتراب في الثقافة العربيّة، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع) البحثَ عن الأسبابِ الّتي تُفْضِي إلى اتّساعِ الفجوةِ بينَ أحلامِ الإنسانِ وواقعِهِ، وتوصّل بعدَ دراسةٍ مستفِيضَةٍ إلى أنّ واقع المجتمعات العربيّة هو واقِعٌ سِلبِيٌّ يدفعُ المرءَ إلى الاغتراب. يقول: « **كَيْفَ تتعمّقُ هذهِ الفجَوَاتُ الواسِعةُ بيْن الحلم والواقع المَصِيرِيِّ؟** (..) **وقدْ اقْتَضى هذا**

التّساؤُلُ القِيامَ بِتحلِيلِ واقِعِ المجتمع العربيّ السّائِدِ مِنْ حيثُ هو واقِعٌ مُغْرِبٌ يُحِيلُ الشّعبَ – وبخاصّةٍ طبقَاتِهِ وفِئاتِهِ المحرومة والمُهمّشة – إلى كائناتٍ عاجزةٍ لا تقوى على مواجهة تحدّياتِ العصر.»[8] ثمّ ينتقِلُ إلى قِياسِ حجمِ الفجوات الكامنة بين أحلام الفردِ وواقعه، الّذي تصِيرُ فيهِ الأحلامُ البسيطة ضَرْبًا من المستحيل. يقول: « **فِي مِثْلِ هذهِ الأجواءِ، (..) تَزْدادَ صُعوبةُ التّمييز بيْن الواقع واللا واقع، وبيْن الحلم المُستحيل والحلم المُمْكِنِ.»**[9]

إنّ واقِعًا يشْعُرُ فيه المرءُ باستِحالةِ تحقِيقِ أمانٍ بسيطةٍ، يدفعُ بِصاحبِهِ إلى إزَاحةِ العالمِ الواقِعيِّ والبحثِ عنْ عالمٍ مُوازٍ بدلاً عنهُ، وقدْ وجدت العديدُ من الشّخصِيّات من فضاءِ الجبل عالَمًا بدِيلاً عن المجتمع، لهذا كان الانتماءُ إلى الجماعات المسلّحةِ ضَرْبًا من تحقِيقِ الذات، كما يظهرُ في قول هذا الشّابّ مُخاطِبًا أمّه: « **عْلاشْ ما ولدتِينِيشْ مع الشّهيد، كنت على الأقلّ وجدتُ عملاً، في هذه البلاد لا حقّ للمواطن الّذي جاء بعد الاستقلال، إذا ما عندوش ورقة المجاهد أو ابن الشّهيد، لازم يطلع للجبل حتى يسْتعرْفوا بيه. »**[10]

فالشّخصِيّةُ حصَلَ لدَيْها وَعْيٌ باسْتحالةِ الحصُولِ على عملٍ، إذا لمْ يكُنْ من ذويّ الحقوق (المجاهدون / أبناء الشّهداء) أوْ الانتماء إلى جماعةٍ مُسلّحة.

وعليهِ فإنّ التّعاطُفَ أوْ **الانتماءَ إلى الجماعاتِ المُسلّحةِ، لمْ يَكُنْ عند البعْضِ مُحصّلةَ وَعْيٍ بمشْرُوعٍ نهضَوِيٍّ تتبّناهُ الجماعةُ، وإنّما كانَ نتيجةَ عجْزٍ عن تحقِيقِ الذّاتِ بِسببِ ما يَرَوْنهُ إجحافًا فِي حقّهم منْ قِبلِ السّلطة الحاكمة، وعجزِهِمْ عنْ تحْصِيلِ بعْضِ الحقوقِ، فكان الانتماءُ للجماعةِ تعوِيضًا لمشاعر اللا انتماء للسّلطة وإنتقامًا منها،** وعِقابًا لها، ولتوضِيح ذلك نسُوقُ هذا المقطع الّذي يُحاورُ فيه أستاذ جامعيٌّ مُعلّمًا مُتعاطِفًا مع الجماعة المسلّحة.

« كُنتُ أسْكنُ فِي كوخٍ، ومنْذُ أصْبحتْ البلدِيّةُ فِي أيْدِيهم أعْطَوْنِي سكَنًا، أنا معهُمْ حتى وَلوْ يَحرِقُون هذه البلاد (..)

– تتحدّثُ عنْ حرْقِ بلادٍ، مثل الّذِي يتحدّثُ عنْ حرْقِ حطْبةٍ يابِسةٍ. النّارُ الّتِي ستأكُلُ البِلادَ ستأكُلُ الجمِيعَ، وأوّلُ ضَحايَاهَا منْ يُوقِدُها.

– خَلِّيها تَخْلى، سُكوتُكم أنتُم المُثقفّون هو الّذي أدّى بِالبِلادِ إلى الهلاك (..) يومَ تَسْتَقِيمُ الأمورُ فِي هذه البلاد، سَندعُوهم إلى الرّجوعِ إلى طرِيقِ الإيمان، ومنْ يرفُضُ لهُ السّيف.

– هذه حلولٌ سهلة يا عبد ربّه، الصّلاحُ بالعقل وليْس بِالسّيْف. »[11]

يُعبّرُ المعلّم (عبد ربّه) عن وَلائِهِ التّامّ للجماعة، مُبرِّرًا ذلك بعجزه عن الحصول على سكن طيلةَ سنوات قَضَاها لاهِثًا بين إداراتٍ وهيْئاتٍ تابعةٍ للنّظام الحاكم، ولمْ يكُنْ لهذا الحلم البسيط أن يتحقّق، لولا نجاح التّيار الإسلاميّ في انتخابات البلديّة، ولأجلِ ذلك فإنّه يُبدي استعداده لِحَرْقِ البلادِ ولاءً للجماعة وانتقامًا من السّلطة. كما لا يتوانى فِي وضْعِ المثقّين والسّلطة في كفّةٍ واحدةٍ، لأنّ هؤلاء – في نظره – لمْ يقوموا بواجبهم في فَضْح السّلطة، ولذلك فهُو يتوعّدُهم بالسّيف، ورغم هذا التّهديد المباشر الّذي طالَ الأستاذ الجامعيّ باعتباره أحدَ المثقّفين، إلاّ **أنّهُ دعا إلى تحكِيم لُغة العقل ونبْذ العُنف**، فتلك النّبرة الحادّة والوعيد الّذي طالَ شخصَ الأستاذ الجامعيّ، هي وجهٌ من أوجُهِ عُقْدةِ الجاهلِ تُجاهَ المثقّف.

2– عقدة الجاهل تجاه المتعلّم :

كان المثقّف ولا يزالُ بمثابةِ شوكةٍ في حلَقِ الجاهلِ، ذلك أنّ الجاهلَ في البِيئاتِ الآمِنةِ لا يَقْوَى على مُجادلةِ المثقّفِ ويُفَضّلُ الصّمْتَ أمامهُ فاسِحًا المجال لهُ للكلام، ومُكتَفِيًّا بالصّمتِ، لأنّهُ يدرِكُ أنّه لا يمتلكُ المعرفةَ الّتي تُتيحُ لهُ مُناقَشَةَ ما يُدلِي به الطرفُ الآخرُ من آراء، هذا ما ولّدَ لدى الجاهِلِ إحسَاسًا باسْتعلاءِ المثقّف عليه، ولذلك كان الجاهلُ على مرّ الأزمنةِ يتحيّنُ الفرصَ المواتيةِ لِلْنيْلِ من المثّقف، وبمُجرّد أنْ ضربَتْ البلاد موجةُ العُنفِ، أدرك المثقّفون أنّه « .. **بِقدْرِ ما تُثبِتُ أمِيَّتَكَ فأنْتَ فِي مَأمَنٍ مُطْلَقٍ**.» [12] لأنّ « **لأنّ قَتْلَ المُثقّف هو (مُوضَةُ) هذهِ الفتْرَةِ الحَالِكَةِ**.»[13] فهُوَ « **غَيْرُ متصالِحٍ معَ السُّلطةِ بِطبِيعَتِهِ، وفِي نَفْسِ الوقْتِ لا يَجِدُ مَنْ يَحْمِيهِ مِنْ غَضَبِ المُتطرِّفين**.» [14]

وقدْ عبّر " واسيني" عنْ مأساة المثقّف بقوله: « **المُثقّفُ فِي هذه البلاد بَهدْلُوه، عزَلُوه، قتلُوه، واليومَ يُجْهِزون علَيْه، هُو أضْعفُ حلَقةٍ فِي عمليّة التّدمِير هذه، يُقْتلُ ويُذْبحُ مثل الخروف، ولا يمتَلِكُ وسيلةً واحدةً للدّفاع عن نَفْسه.**

– (..) لَوْ عرَفَ القتلةُ أنّنا نملِكُ قوّة ناريّة، لما تَجرّؤوا على ذبحِنا كالخِرفان. »[15]

لقدْ شكّلتْ المأساة الوطنيّة بيئةً مُوَاتيةً للجاهِل، فيها يُمكنُه أنْ **يُثبِت ذاتهُ على حسابِ المُثقف**، فهذا المناخُ الّذي تسيّدتْ فيه لغة العنف والتّقتيل يُتِيحُ للجاهِلِ فُرْصةَ النّيْلِ من النّخبة، لذا نجدُه إمّا قَاتِلا أو مُتشفِيًّا، مُتلذّذًا بِسماع أخبار الاغتيالات الّتي تطالُ الأدمِغَة، كما يظهرُ في هذا المقطع:

« – واشْ كايَنْ؟ كانْشْ كافَرْ طَاحْ، هذهِ الأيّام يَتَساقطُونَ كالنّملِ. فَتاوى السَّيّد عليّ دايره فِيهم حالة.

– (..) الّذِينَ يُقتَلون غيرُ صالِحين إذنْ.

– حتى ولَوْ كانُوا صَالِحِينَ، مادَامُوا قَدْ نَاصَرُوا الطّاغُوتَ، صَارُوا منه.

– هلْ تعرِفْ أنّ هؤلاءِ الّذين يُقتلون كانُوا سُجناءَ السّلطة واليومَ يَقِفُونَ عُراةً أمامَ السّكاكِين، أضْعَفُ الحلقاتِ، ونِهايَتُهم تُرْضِي الكثيرِين.

– اللّه لا يردّهُمْ.

– فجأةً قُلتُ له توّقفْ (..)

– يا أخِي أنْتَ مُعلّم، وأنا كنتُ أتحدّثُ عن المثقّفِين! » [16]

لقدْ أدرك الأستاذ الجامعيّ الضغِينة الّتي يُكِنُّها الجهلَةُ للنّخبة، لذلك لمْ يُفْصِحْ عن مستواه لسائِقِ السّيّارة المتعصّب، وأخبرهُ بأنّهُ مجرّد معلّم في الابتدائيّ، وخلال الحوار الّذي دار بينهما، حاولَ الأستاذ **تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة لدى ذلك السّائق المُتطرّف**، والّذي كان يعتقد أنّ المثقفّين مُناصرون للسّلطة، فنبّهَهُ إلى أنّ المثقفّين هم أعداء السّلطة الأزليّين، إلاّ أنّ تطرُّفَ السّائق جعلهُ يتعصّبُ لِرأيه، ويتمسّك به من **دون مراعاة آدابِ الحوار: « شَعرْتُ بِنفْسِي مثل المَجنون، أدخُلُ حوارًا هو أصْلا لَيس حِوارًا، شيءٌ آخر، دائرة مُغلقة، لا تنْفتِحُ إلاّ لتنْغلِقَ على نَفْسِها من جديد، هو لا يسْمعُنِي وأنا لا أسْتطِيعُ فهمه.»** [17]

وفي مقطع آخر من نفسِ الرّواية، يسوقُ لنا الكاتب ردَّ قاتِلٍ أثناء استجوابِه في مركز الشّرطة، واضِعًا القارئَ أمامَ موقفٍ يتصَارعُ فيه الجهلُ مع المعرفة:

« أحَدُ القَتَلةِ عندمَا ألْقِيَ علَيْهِ القَبْضُ، سُئِلَ عنْ عمَلِه، قال: حلْوَاجِيًا ثُمّ خضَّارًا مُتنَقّلاً.

– (..) لِماذَا قَتلْتَ رَجُلاً خَيِّرًا مِثلَ يُوسف؟

– قتلتُهُ c'est normal ، يستاهَل، كان يشتُمُ المُسلِمينَ على المنابِرِ الدّولِيّة.

– هل تعرفُ أنّه كانَ من المدافِعِين عن الإسلام الحضاريّ؟

– هذا لا أعرِفُهُ ولَيْسَ من اختِصاصِي، لكنْ أعرفُ أنّهُ كان تشكِيلِيًا وشاعِرًا، ونحّاتًا، وهو الّذي كان يُحضّرُ لِمشروعِ الألفِ صَنمٍ فِي المدن الوطنِيّة. كان غاوِيًّا.

–كانَ غاوِيًا. الشّيءُ الوحِيدُ الّذي لنْ يرفُضَهُ يوسُف، تُهمتُهُ الجميلة الّتِي ظلّ طوال حياتِهِ يُدافع عنها (..) الغِواية الاستثنائيّة، ألَيْسَ هذا هو تعريف الشّعريّة بِكلّ مواصفاتِها النّبيلة.» [18]

جاءَ هذا المقطعُ حافِلاً بالتّقابُلاتِ الّتِي تَعْكِسُ حَجْمَ الفجوةِ الفاصِلةِ بَيْنَ مَوْقِفَيْنِ فِكريّيْنِ لِشَخْصَيْنِ على طَرَفَيْ نَقِيضٍ: الطرف الأوّل جاهِلٌ متطرّف والثّاني مُتقّفٌ مُعتدِلٌ، القاتِلُ أمّيٌّ كان يشتغلُ حَلْواجِيّا ثمّ خَضّارًا، والمقتُولُ جمعَ بَيْنَ الشّعْرِ والنّحْتِ والفنّ التّشكيليّ، فالمسافةُ شاسِعةٌ بَيْنَ الرّجُلَيْنِ. القاتِلُ يَعْتقِدُ أنّ ضَحِيّتَهُ كانَ يشْتُمُ المسلِمِينَ وينْتَقِصُ من قِيمَتِهِمْ في المحافِلِ الدّولِيّة، في حِينِ أنّ المقتول كانَ من أشَدّ المثقّفِين حِرْصًا على تعريفِ العالَمِ بحضَارةِ المسلِمِين وَرُقيّ إرْثِهِمْ الثّقافِيّ والفَنّيّ، القاتِلُ يرى في مشروعِ الضّحِيّةِ المتمثّلِ في تَرْمِيمِ الآثارِ ونَحْتِ التماثِيلِ غِوايَةً وكُفْرًا، بَيْنَما يعتبِرُ المقتولُ الغِوايَةَ حُلْمًا يَنْشُدُهُ كلُّ فنّانٍ، لأنّها ذِرْوَةُ الفنّ وقِمّةُ الشّعريّةِ.

هذهِ التّعارُضاتُ والتّقابُلاتُ أسْهمتْ مجتمِعةً في بَلْوَرَةِ تَضادٍّ في الموْقِفِ، نَجَمَ في الأساسِ من نظْرَةِ كلّ طرَفٍ إلى الفنّ، **ذلكَ أنّ تطرُّفَ القاتِلِ وجَهْلَهُ دفعَاهُ إلى أنْ يَعْتَبِرَ الفنَّ غِوايةً (كُفْرًا)، والفنّانَ زِنْدِيقًا أوْ مُلْحِدًا يجوزُ قتْلُهُ لأنّهُ يَنْشُرُ الغِوايَةَ بيْنَ النّاسِ، بيْنما كانَ الضّحِيّةُ يعتَبِرُ الفنّ رِسالةً سامِيّةً تُسْهِمُ في نشْرِ السّلامِ بيْنَ البشَرِ. وعَلَيْهِ فإنّ الجَهْلَ هو المنْبَعُ الأساسُ الّذي غَذّى الدّعواتِ التّضلِيلِيّةِ الّتِي نَظرتْ إلى الفنونِ الإنسانِيّة الرّاقِيةِ كالشّعر والنّحتِ نظرةً تكفِيريّةً.**

لهذا نجدُ الرّوائيّ يعتبرُ فُقدانَ قامةٍ سامِقةٍ في ميدان الفنون الإنسانيّة، على يدِ خضّارٍ أو حلواجِيٍّ تافهٍ، جاهلٍ، أمرًا فِي غايةِ العبثِيّة، يقول: « **نحنُ نعيشُ عبَثِيّةً، معناها ليْس فقط غامضًا، ولكنّه مستحيل، خضّار وحلواجِيّ يقتل صوت المدينة ويُطفِئ نورها، ماذا كان يعرف عن يوسف وهو يستلّ قلبه وينزع رأسه، سوى النّعوت الجاهزة. »** [19] ويَعِيبُ الرّوائِيُّ على القاتِلِ جهلَهُ لحقِيقةِ المقتول، **واعتماده في إصدار أو تنفِيذِ الأحكامِ بالقتل على ما**

مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 4 السنة: 2020
ص: 487 - 503 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

يسمعُهُ وما يُلقّنُ لهُ، « **الّذي قتل يُوسف، لا يعرِف عنه شيئا سوى الصّيغة الّتي أسمعوها إيّاها، والنّصيحة الّتي سلّحوه بِها: بِقدرِ ما يَرْغِي المذبُوح ويتعذّب، سَيُغفَرُ لك ما تقدّم من ذنبِك وما تأخّر.** »[20]

والقاتِلُ لمْ يسبِقْ لهُ أنْ قرأ أعمالَ الضحِيّة، بلْ ولمْ يقرأ أيَّ مُؤلّفٍ آخرَ، لأنّه لَوْ قرأ ما قَتلَ، فالقراءةُ تنويرٌ للعقلِ، وقبولٌ للرّأيِ والرّأيِ الآخر: « **أنَا مُتأكّدٌ أنّ القتلةَ لمْ يَقْرَؤوا حَرْفًا واحِدًا مِمّا كان يَكْتُبُهُ، لَكِنّ الّذِي سَرَّبَ اِسْمهُ كانَ يَعْرِفُهُ جيّدًا، فالقِراءةُ تُضَيِّقُ مساحة التّعصُّبِ، ومَدْعاةٌ لِلحُبّ والتّأمّل.** »[21]

ولمْ يقِفْ الجاهِلُ في صراعِهِ مع المثقف عند هذا الحدّ، بلْ صارَ **يسعى إلى تحقيقِ ذاتِهِ بِطموحِهِ غير المشروع في تولّي المسؤولِيّاتِ** وقِيادةِ النّخبة، خُصوصًا بعدما صارت البلدُ ساحةً يتحاورُ فيها النّاسُ بالمسدّس والرّشاش:

« – **لَوْ نحكَمْ هذه البِلاد يَوْما واحِدًا، نَقْلبْ سَافِلْ على عافِلْ، خلّطْها تَصْفَى.**

– **يا رجُل ! أنتَ سائِق سيّارة، مكانُك أنْ تكون سائِقا جيّدا، وأنا مُعلّم وظِيفتِي أنْ أكون مُعلّما جيّدا، لَوْ فكّرَ كلّ واحدٍ بهذه البساطة، لكانتْ البلادُ على حالٍ غيرِ هذه، ولِنتْرُك البقِيّة لِكِبارِ الأمّة (..).**»[22]

وهنا **يبرز دورُ الرّوائيّ / المثقّف –كالعادة – لِيُنَبِّهَ إلى ضرورة وجود الرّجل المناسب في المكان المُناسب،** وحِرْص الفرد على إتقانِ العملِ الّذي يُزاوِلُهُ، وتركِ الأمور الجليلةِ لِمنْ يصْلحون لِقيادةِ الأمّة

وفي نفسِ الحوار الدّائر بين الأستاذ الجامعيّ وسائق سيارة الأجرة، يجرّ الأستاذُ مُحاورهُ إلى الحديثِ عنْ بعضِ المزالِقِ الّتي حدثَتْ نتيجة صراع المسلمين على الخلافة، بعد وفاة الرّسول (ص)، فيكون موقفه التّعنّت ورفض الحقائق:

« – **حتى أحْنا قتلْنا الخلفَاء، وسَبَيْنا ذريّة الرّسول.**

– **شْكون قال مثل هذا الكلام؟**

– **التّاريخ، اقرأ وتْشُوفْ.**

– **لَسْتُ بِقارئ، وما نَسْتَعْرَفْش بكُتب التّاريخ هذه..** »[23]

فهو وإنْ كانَ يُقِرُّ بحقيقةِ جهلهِ، إلاّ أنّهُ يرفُضُ الاعترافَ بتلك الحقائق الّتي دوّنها التّاريخ، بل لا يعترِفُ بالتّاريخِ عِلمًا قائمًا له أسّسُه ومُقوّماته، فهذا السّائق الّذي **لا يمتلك أدنى أدبيّات الحوار، حصلَ عندهُ يقِينٌ رغم جهلهِ**، وهذا الأمرُ شديدُ الخطورةِ، لأنّ « **الجهل إذا امتزج باليقِين أصبح قنبُلة ذريّةً فِي قلبِ رجُلٍ أعمى القلْبِ والذّاكرة.** »[24] ولعلّ هذا من أهمّ الأسباب الّتي جرّدَتْ قلوبَ القتلةِ من الرّحمة في نظر الرّوائيّ: « **الآنَ أفْهمُ لماذا يُذْبحُ النّاسُ بِلا رحمةٍ، عندما ينغلِقُ المُخّ على مُمتلكاته الصّغيرة، ويُحِيطُها بِسيّاجٍ من الضّغِينة والخوف، يصبح الجهل والظلام سادة الدّنيا..** »[25]

وعليهِ فإنّ سَعْيَ الجاهل إلى إثباتِ وجوده – رغم افتقاره للمعرفة الّتي تُعدُّ أحدّ أهمّ مقوّمات الكينونة– دفعهُ إلى التّعاطف / الانتماء مع الجماعات المسلّحة، وتبنّي لغة العنف كأداةٍ لكسْبِ الرّهان في صراعه الأزليّ مع المثّقف، كما أسْهمَ اِفتقارُ المتطرّف لأدنى أدبيّات الحوار، في تأجِيج مشاعر الكراهيّة واللا تسامح، ونبذ الآخر. سواءٌ أكان الآخرُ مُخالِفًا في الفكر، أمْ مُخالِفا في المعتقد.

ثانيا : **فعل القتل باعتباره نبذا للآخر المُخالف** :

1– نبذ الآخر المخالف في الرّأي :

يُعدُّ نبذُ المتطرّف للمُخالِف لهُ في الرّأي امتدادًا لصراع الجاهل مع المثّقف، لأنّ هذا المخالِفَ ليْسَ – في الغالِبِ – إلاّ المثقّف، فـ « **المُثُقَّفُ هو الشّخْصِيَّةُ الّتِي يَتَشكّلُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَعْيٌ قَائِمٌ عَلَى إِدَانَةِ الإِرْهابِ.**»[26] فهُوَ بطبِيعتِهِ غَيْرُ قادرٍ على السّكوتِ على كلّ ما يَمُتُّ للتّخلّف بِصِلّةٍ، وبذلك تكونُ أراؤُهُ سببًا في هدْرِ دمِه، حتى ولوْ كانَ من أشدِّ النّاسِ غِيرةً على الوطن، ومن أكثرِهمْ دفاعًا عن المواطن، لذلك تنبأُ الكثِيرون بأنّ أيامهُم باتَتْ معدودة، وأنّ قاتِلِيهم ليسُوا سوى أولئك الّذين دافَعُوا عنهم وناضَلُوا لأجلِ قضَايَاهم العادلة، كالحريّة والكرامة والعدالة .. ينقلُ السّارد على لسانِ (يوسف) هذا الإحساس أيامًا قبل اغتياله، فيقول:

« **أعرِفُ جيّدا أنّ اليد الّتي ستقتُلُنِي، لنْ تكون إلاّ يدَ واحِد من هؤلاء المنسيّين الّذين أدافِع عنهم، (..) اللّه غالب، في المدرسة، في البيت، في العمل، علّموهم أنّ كلّ من يُفكّر بحُريّة خطر على البلاد.** »[27]

وحُريّةُ التّفكير – في نظرِ الكاتب – مُصَادرةٌ فِي المجتمعات الّتي لا تؤمنُ بمبدأ التّعدّد وتُنْكِرُ الاختِلافَ الّذي يُعدُّ أحدَ نوامِيسِ الكون، لهذا فهي تسْعى إلى تكريس أحادِيّة الرّأي في جميعِ البِيئات: في البيت، المدرسة، العمل ... هذا من شأنِهِ أنْ يُظْهِرَ كُلّ مَنْ يُفكّرُ بحريّةٍ بمظهرِ الشّخصِ الخطير الّذي يَجِبُ على الجميع مواجهته، حتى وَلَوْ كانَ هذا الفِكْرُ الجديدُ الّذي يحمِلُه الشّخصُ – المتحرّرُ – يتعلّقُ بمجالِ الموسيقى، كَحالِ الشّابِ (محمّد بن الفقيه) الملقّب بِ (جُوني) الّذي حاربَهُ الجميعُ في مجتمعه القرويّ، لا لشيءٍ إلاّ لأنّهُ عاشِقٌ لِمُغنٍ أوروبيّ: يصِفُ السّاردُ حالَهُ بقوله: « **كانَ يحمِلُ على ظهرِهِ جِرابًا أسود، يُخَبِئُ فِيه أعدادًا من مجلة salut les copains ، على ظهرِهِ قِيتارتُه الدّائمة، وفي يده اليُمنى مذياعُه الصّغير SHARP 6 منه يسمع المقطوعة لِيُعِيدَ عزفَها بِسُرعة. وكان الأطفالُ قبل أن يدخُلُوا المدرسة يُحِيطونَ به، يُنادونه النّملة مُقلّدين معلّم العربيّة الّذي لمْ يكُنْ يُحِبّه، يقول عنه دائما: هذا ولد حرام، لازم أمّه تكون يهوديّة وإلاّ روميّة.**

الفلاحون المُتجّهونَ نحو عَيائِهم اليّوميّ يَنُشُّون الأطفال المُحيطين به للاستماع إلى عزفه .. رُوحُوا حابِين تفَلْسُوا ..

" محمّد بنُ الفقيه " جُوني كان يعْشق الموسيقى، ويُردّدُ كثِيرًا : ما نَبْقاشْ في هذا البلاد.» [28]

لقدْ عارَضَ جميعُ أهلِ القرية تصرّفات شابٍّ مُولعٍ بالموسيقى، ولمْ تشْفع لهُ موهبته حتى عند المعلّم الّذي كان يُفتَرَضُ بهِ أنْ يَحْترِمَ اختيارَ الشّاب وتكونَ لهُ نظرةٌ مُخالِفةٌ لِلْعَوَامِ فِيما يتعلّق بالموسيقى الّتي تُعدُّ فنًّا سامِيًا، وهذه المعارضةُ تعودُ في جوهرِها إلى نُفورِ الكثِيرينَ من الأفكار الجديدة، « **ومحاولَتِهِمْ ضرْبَ هذهِ الأفكارِ وكَسْرِ هذا التّوجُّهِ بِكُلِّ ما أوتُوا مِنْ قُوّةٍ، خَوْفًا مِمّا تَجْنِيهِ هذهِ الأفكارُ على مَا تَعوّدَهُ النّاسُ مِنْ تَبْجِيلٍ لِلقديمِ وتقْدِيسٍ لهُ، حتى وإنْ كانَ فِيهِ تعاسةٌ لهُمْ.»** [29] وهذا الاعتقادُ يُمكِنُ أنْ يُشكّلَ أرضِيّةً خصبةً يتغذّى منها التّعصّبُ، فإذا وجدَ بيئةً تُتِيحُ لهُ استخدام العُنف، كان المخالِفُ في الرّأي بمثَابةِ الطّاغُوتِ الّذي يتوجّبُ تصْفِيَتُهُ تطهِيرًا للمجتمع: « **يَظْهَرُ فَجْأةً لِيُشْهِرَ مُسدّسَهُ فِي وَجْهِكَ قائِلاً لكَ: لَكَ الموْتُ يا طاغُوت! في لُغةِ العُنْفِ (..) كُلُّ واحِدٍ لا يُفكّرُ كمَا يُفكّرُ القاتِلُ بمثَابةِ الطّاغوت الّذي يسْتحِقُّ التّصْفِيَةَ.»** [30]

2- نبذ الآخر المخالف في المعتقد :

ما مِنْ شكٍّ أنّ البيئةَ الّتِي يكونُ فِيها القاتِلُ طرفًا فاعِلاً، تَشِيعُ فِيها ثقافةُ اللا تسامُح ونبْذ كُلِّ مُخالِفٍ في المعتَقدِ تمهيدا لِتصفِيّتِهِ، هذا ما يدْفع الأقليّات إلى عدم الجهرِ بِمُمارسةِ شعائِرِها، كما يظهرُ في الحوار بين شخصيّة الأستاذ الجامعيّ وابنتِه:

« – لِماذا لا نرى مسِيحيّين في الطّريق كالمُسلمين مثلا، سُكّان حيّ اليهود الّذي تجوّلنا فِيه ولمْ يبْقَ منه إلاّ اسْمه: هل خرجوا كلّهم؟

– يا رِيما، هذا تاريخٌ منسِيٌّ، اللا تسامح والخطابات الوطنِيّة المنفوخة هي الّتي سحقَتْ كلّ شيء، لا يُمكِنُ أنْ يَعِيشَ إنْسانٌ فِي وطنٍ يُشْتمُ فِيه يومِيّا ورُبّما يُقْتل، الجزائِر مُتعدّدة تارِيخِيّا، وأرادُوها أنْ تكون كمَا توهّمُوا، وها هِي النّتيجة الآن. »[31]

فالكاتِبُ – على لسان الشّخصِيّة – **ينتَقِدُ صراحةً نبْذَ المجتمع للآخر المُخالِف في المُعتقد، لأنّ الاختلاف أمرٌ حتمِيٌّ في بلدٍ مُتعدّدِ الأعراقِ كالجزائر**، فثقافةُ اللا تسامح – في نظره – حقيقةٌ قائمةٌ في الجزائر رغم الشّعارات الرّنانة الّتي يردّدُها المسؤولون إرضاءً للهيئات الدوليّة المناهضة للتّضييق عن الحريّات الدّينيّة، ولِتأكِيدِ نظرَتِهِ يَسُوقُ لنا في موضع آخر من ذات الرّواية موقفًا مُتطرّفا أبداهُ أحدُ العوَامِ نحو غير المسلمين:

« – أسْتغْفِرُ اللّه.

– واشْ صارْيا رجل، فيروز صوت ملائكيّ، وأغنية جميلة عن الطّفولة والحرب.

– (..) إنّها مسِيحِيّة.

– ومنْ بعد، هذا شْغُلْها.

– كِيْفاشْ ومنْ بعد؟ قلت لك مسيحيّة، كافرة.

– هذا أمرٌ يخُصُّها، مثلما أنت مُسلم والآخر يهوديّ ... و ...

– حَاشاك، كي تقول يهودي قُلْ حاشاك.

– يا رجل، أنت مُسلم وإلاّ طاغِيّة؟ المسِيحيّة واليّهوديّة كلّها أديان سماويّة. »[32]

فالطرفُ المتعصّبُ في هذا الحوار لمْ يسْتغْفِر اللّه لأنّهُ سَمِعَ غناءً نابِيًا خادِشًا للحياء، ولكنّه اسْتغْفرَ لأنّ المغنِيّة مسِيحِيّةٌ، لمْ يشْفعْ لها لا صَوْتُها الملائِكِيُّ، ولا كلامُها الهادف، ولا موسِيقاها العذبة، ولا مضمون الأغنيّة الإنسانيّ ... كلُّ هذا – في نظره – لا يُساوي شيئًا، إذا كانت مسيحِيّةً !!

أمّا الأدْهى والأمرُّ – بالنّسبة للكاتبِ – ، فأنْ تكونَ مُضطرًا لأنْ تقُول ((حاشاك)) كُلّما تلَفَظْتَ بكلمةِ يهوديّ، وهذا **في نظرِ الكاتبِ طُغْيانٌ ولَيْسَ تديّنًا، لأنّ المسيحِيّة واليّهودِيّة أديانٌ سماوِيّةٌ**، والإسلامُ يدْعو إلى الإيمان بالأنبياء والكُتب السّماويّة، ودعانَا إلى احترامِ أهْلِ الكتاب، ودعوَتِهِمْ بالرّفقِ واللّينِ، وليْس بالتّشدّدِ والتّعصُّبِ.

وعَلَيْهِ، فإنّ نبْذَ الآخرِ سواءٌ أكانَ هذا الآخرُ مُخالِفاً في الرّأي أوْ في المعتقد شَائِعٌ في المجتمع، بسببِ بعضِ السّلوكاتِ الخاطئة الّتي تُلَقَّنُ للفرْدِ في مُحيطِه الأسريّ وحتى في الوسط المدرسيّ عنْ قصدٍ أوْ دونَهُ، ما أسْهمَ في **تفشّي ثقافةِ اللا تسامُحِ، الّتي تحوّلتْ إلى عُنْفٍ وتقْتيلٍ** بِمُجرّدِ دُخولِ البلادِ في دوامةِ العُشْريّةِ الدّمويّة.

ثالثا : فعل القتل باعتباره إسكاتا للمثقّف :

حِينمَا يتعلّقُ الأمرُ بإسْكاتِ المثقّف، فإنّ مصالِحَ القاتِلِ تتوازَى مع مصالِحِ جهاتٍ خفيّة اِخْتارَ لها " واسِيني " تسْمِيّةَ (المافِيا السّياسِيّة) مثلما يظهرُ في هذا القول: « **ما حدثَ لِلْيابس (..)، علولة وغيرهِم، عمليّات مُرتّبة بِشكلٍ كبير ودقِيق (..) أكادُ أقُولُ مافيا مالِيّة – سياسيّة – دينِيّة، من مصلحَتِها التّخلّص من كلّ الّذين يملِكون أسرارَها، أو قادرِين على فضْحِها.** »[33]

هذه المافِيا تجعل حماية مصالحِها من أولوياتها، وهي لا تجِدُ حرجًا في أنْ تتحالَفَ مع القتلةِ دَرْءًا لكُلِّ ما يُهدِّدُ كَيانَها ويَفْضحُ مُمارَسَاتِها: « **الرّجُلُ كان يَعْرِفُ الكثير و "يَفْهم بزّافْ"، وفي هذه البلاد كُلُّ منْ يَفْهمْ بزّافْ يُمْحَى.** »[34]

فتَصْفِيَةُ المثقّف – في نظرِ الكاتب – تكونُ بتواطُءٍ من أسماهُم الرّوائيّ بالمافيا السّياسيّة، ما يَعْنِي أنّ ثمّة قاتِلَيْن: القاتِلُ الفعليُّ مُمَثّلاً في شخْصِ المتطرّف، والقَاتِلُ الحقيقِيُّ الّذي سرّبَ اسْمَهُ « **الّذي سَرَّبَ اِسْمَهُ..** »[35] فالمتطرّفُ ينفّذُ الاغْتِيالَ «**بينما يتلذّذ القاتل الحقيقيّ بالمشهد من وراء زجاج مَسْبَحِهِ الخاصّ.** »[36]

وقدْ تعمّدَ " واسيني" في كثيرٍ من المقاطع التّأكيدَ على جهْلِ القتلَةِ التّامّ لشخصِيّة المغْتالِ، وأحْيانًا نجدُهُ ينْقُلُ اعترافَ القتلة بذلك، كما يظهرُ في هذا المقطع:

« تعرفين يا بنت النّاس، أخوك ما نعرفوش، ما نعرفْش حتى واشْ يديرْ، أعرف بيْتهُ وملامِحهُ، وقِيلَ أنّه يرسُم كثيرًا، ويشتُمُ المسلمين في كلّ المحافِل الدّوليّة، اسْمه يُوسف ولا يحمِلُ سِلاحًا، فقط. البقيّة معرُوفة، يجبُ إنهاؤهُ وإسكاته . »[37]

فَفِي قوله: **البقيّة معرُوفة، يجبُ إنهاؤهُ وإسكاته**، ما يَشِي بتلَقِي القاتِل لأوامر من جهاتٍ مُعيّنة !!

لقدْ أشارَ الكاتِبُ صراحةً – في أكثر من موقفٍ، إلى **أنّ المُثقفَ الّذي يعتبِرُهُ القتلةُ عدُوًا للبلَدِ، وعمِيلاً للنّظام، كانَ – ولا يزالُ – الخصمَ الحقِيقيّ لأيِّ فسادٍ سِياسِيّ، لذلك كانتْ تصْفِيّتهُ تصُبُّ في مصلحة أولئك الفاسدين** الّذين يَهابُونَ النّخبَةَ، لأنّها تُعرّيهم أمامَ الرّأي العامّ، كما يظهرُ في قوله :

« – هلْ تعرِفْ أنّ هؤلاءِ الّذين يُقتلون كانُوا سُجناءَ السّلطة واليومَ يَقِفُونَ عُراةً أمامَ السّكاكِين، أضْعَفُ الحلقاتِ، ونِهايَتُهم تُرْضِي الكثيرِين ! » [38]

وعليهِ، فإنّ « **الخَصْمَ الحقِيقِيّ لأَيِّ مُثقَّفٍ** (..) **التّخَلُّفُ بِمعناهِ الواسِعِ وأبْعادِهِ الخَطِيرةِ .. هذا التّخَلُّفُ قَدْ يَضُمُّ فِي مُعَسْكرٍ واحِدٍ كُلاً من التّياراتِ الإسلامِيّةِ المُتطرِّفةِ وسُلوكاتِ القَهْرِ السِّياسِيّ كَيْفَمَا كانَ شَكْلُها أوْ تنظِيمُها.»** [39]

– خاتمة بأهمّ النّتائج الّتي توصّل إليها البحث :

1- الانتماء إلى الجماعاتِ المسلّحةِ، كانَ عند البعْضِ مُحصّلةَ عجْزٍ عن تحقِيقِ الذّاتِ في المجتمع، فكان الانتماءُ للجماعةِ تعويضًا لمشاعر اللا انتماء للسّلطة.

2- لا يتوانى المُتطرّفُ فِي وضْعِ المثقفِين والنّظام في كفّةٍ واحدةٍ، لأنّ هؤلاء – في نظره – لمْ يقوموا بواجبهم في فَضْح السّلطة، وفي المقابل نجدُ الرّوائيّ يدعو إلى تحكِيم لُغة العقل ونبْذ العُنف، مع تصحيحِهِ بَعْضَ المفاهيم المغلوطة، مُنبِّهًا إلى أنّ المثقّفَ الّذي يعتبِرُهُ القتلةُ عدُوًا للبلَدِ، وعمِيلاً للنّظام، كانَ – ولا يزالُ – الخصمَ الحقِيقيّ لأيِّ فسادٍ سِياسِيّ، لذلك كانتْ تصْفِيّتهُ تصُبُّ في مصلحة أولئك الفاسدين.

3- لقدْ شكّلتْ المأساة الوطنيّة بيئةً مُوَاتيةً للجاهِل، فيها يُمكنُه أنْ يُثبِت ذاتهُ على حسابِ المثقّف، فهذا المناخُ الّذي تسيّدتْ فيه لغة العنف والتّقتيل يُتِيحُ للجاهِل فُرْصةَ النّيْلِ من النّخبة.

4- تَمَادَى الـمُتطرّفُ الجاهِلُ حينَ سعى إلى تحقيقِ ذاتِهِ من خلالِ طُموحِهِ في تولّي المسؤوليّاتِ وقيادةِ النّخبة، وتصدّى الرّوائيّ / المثقّف مُنبّهًا إلى لا مشروعِيّةِ هذا الطُموح، مُشدّدًا على وُجوبِ حِرْص الفرد على إتقانِ العملِ الّذي يُزاوِلُهُ، وتركِ الأمور الجليلةِ لِمنْ يصْلحون لِقيادةِ الأمّة.

5- الجَهْلُ هو المنْبَعُ الأساسُ الّذي غذّى الدّعواتِ التّضليلِيّةِ الّتي نَظرتْ إلى الفنونِ الإنسانيّة الرّاقِية نظرةً تكفِيريّةً، كما أنّ امتزاج اليّقِينِ بالجهلِ لدى المتطرّف، وافتِقاره لأدبيّات الحوار، أذْكَى جذوَةَ العُنفِ عنده.

6- مُصَادرةُ حُريّةِ التّفكير والمعتقد في المجتمعات مُتعدّدَةِ الأعراقِ – مثل الجزائر – ، شكّلَ أرضِيّةً خصبةً تغذّى منها التّعصّبُ، الّذي تحوّلَ إلى عُنفٍ خلالَ العُشريّة الدمويّة ، حينها صار المخالِفُ في الرّأي أوْ في المُعتقد بمثَابةِ الطّاغُوتِ يتوجّبُ تصْفِيّتُهُ تطهِيرًا للمجتمع.

هوامش:

[1] – آمنة بلعلى : المتخيل في الرواية الجزائرية، من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر، ط2 ، تيزي وزو، الجزائر،(د ت)، ص207

[2] – محمّد الآمين بحري، بنية الخطاب المأساويّ في روايات التّسعينيّات الجزائريّة – الطّاهر وطّار، الأعرج واسيني، أحلام مستغانمي، رسالة مُقدّمة لِنيل دكتوراه العلوم في الأدب الحديث، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الحاج لخضر – باتنة، 2008م – 2009م ، ص 5

[3] – نوارة لحرش، " ما الذي تركته الأزمة في الرواية"، حوار صحفيّ مع مجموعة من الكتاب والرّوائيين، جريدة النصر، بتاريخ: (5/ 07/ 2010)، (الصّفحة الثقافيّة)

[4] – سعاد العنزي، '' المعرفيّ فاق الفنيّ حضورا في الرواية الجزائرية لفترة العشرية الحمراء – حوار منشور بجريدة '' الأمّة العربية، بتاريخ: 2010/01/12 (الصّفحة الثقافيّة)

[5] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء – محنة الجنون العاري – ، (رواية)، ورد للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط4، 2008م، ص 9.

[6] – بوشوشة بن جمعة، سرديّة التجريب وحداثة السردية في الرواية العربية الجزائرية، الدار المغاربية للنشر، تونس، ط1، 2005 .ص 55.

[7] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق ، ص 170

[8] – حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربيّة، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط1، سبتمبر 2006، ص 8

[9] – م . ن، ص 30

[10] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق ، ص 332

[11] – م . ن، ص 66- 67

[12] – م . ن، ص 113

[13] – إبراهيم سعدي، الرّواية الجزائريّة والرّاهن (مقال)، كتاب الملتقى الثّالث لعبد الحميد ابن هدّوقة، أعمال وبحوث، مديريّة الثّقافة لولاية برج بوعريريج، ص237

[14] – علال سنقوقة، المتخيّل والسّلطة في علاقة الرّواية الجزائريّة بالسّلطة السّياسيّة، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2000م، ص 41.

[15] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق ، ص 198 – 199

[16] – المصدر نفسه، ص 289.

[17] – م . ن، ص 286

[18] – م . ن، ص 300

[19] – م . ن، ، ص 302

[20] – م . ن، ص 287

[21] – م . ن، ص 140

[22] – م . ن، ص 280 – 281

[23] – م . ن، ص . ن

[24] – المصدر نفسه، ص 285 – 286

[25] – المصدر نفسه، ص 287

[26] – إبراهيم سعدي، الرّواية الجزائريّة والرّاهن، (مقال) منشور ضمن كتاب الملتقى الثّالث لعبد الحميد ابن هدّوقة، مرجع سابق، ص237

[27] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق، ص 306

[28] – م . ن، ص 41

[29] – رواق عثمان ، النّص الموازي – قراءة في عناوين روايات عبد الحميد بن هدوقة (برؤية تناصية)، مقال منشور في مجلة البُحوث والدّراسات الإنسانيّة، مجلة أكاديميّة مُحْكمة تُصدرُها جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة، عدد رقم 4 ، ماي 2009، ص 367.

[30]- ياسمينة صالح، وطن من زجاج (رواية)، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2006، ص 70

[31] – واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق، ص 171

[32] – م . ن، ص 280 - 281

[33] – م . ن، ص 201

[34] – م . ن، ص 137

[35] – م . ن، ص 140

[36] – م . ن، ص 306

[37] – م . ن، ص 296

[38]- واسيني الأعرج، ذاكرة الماء (رواية)، مرجع سابق، ص 289.

[39]- نفيسة الأحرش، كتابات امرأة عايشت الأزمة، منشورات جمعية المرأة في اتّصال، الطبعة الأولى، 2002، ص 3-4.